مراسم حرق القميص

تطويني الشـوارع وأطويها، تأخذني خطواتي للَّامكان. أحاول الفرار من السـيارات المسرعة، وأعمدة الإضاءة المزعجة. أدخل مقهاي القديم لأجلس. دخان الشيشة يُضبب الرؤية، ويتراكم في الهواء الراكد. القهوجي المسنُّ يضحك وهو يروي لي نكتةً بذيئة. أراهُ ولا أسمع ما يقول.

أضواء السيارات المُقبلة تُعمي عينيّ. أحاول الإسراع في سيري المتخبِّط، أصل للمكان فأجده قد أغلق، أقف أمامه مشتتًا. يقولون أن سكان الحيِّ قد اشتكوا من وجود مثل هذا المقهى الجديد هنا في حيهم الهادئ. أمدُّ يدي لأخـرج هاتفي لأكلمها وأخبرها؛ لا أجده. جيبي خالٍ. والظلام يقبض على السـماء فوقي. لا أحد هناك؛ فقط سـيارات مسرعة بكشافات تُعمي الأبصار. أواصل سـيري المتعثِّر. ألتفتُ خلفي لأجد السيارة الكاديلاك

السـوداء تمرُّ مسرعةً جانبي، تتركني حيث لا أدري أين أنا، أقف لأتطلع حولي. المدينة القبيحة ذات الضجيج المتصاعد.

تقودني قدمـاي لمقهاي القديم من جديد، أجد نفسي جالسـا داخله. الإضـاءة خافتـة. والراديـو المُعلـق لا يبثُّ شـيئًا؛ فقط وشـيش خافت كموج البحر. يرفض القهوجي أن يُنزل لي شيشـتي. يتطلع إليّ بهلع وهو يشـير بأنَّ هناك خطًّا أحمر يسـيل من أنفي؛ أتحسسه بفزع. أشعر بالدفء واللزوجة، أمسـحه بيدي محرجًا، فيعطيني منديـلًا مفرودًا. أنظر له غير قادرٍ على الكلام.

يدور المقهى بي ببطء، يلف حـولي وألفُّ معه، يقترب مني القهوجي بملامحـه الطيبة ليربتَ على كتفـي فأنتفض. أصرُّ على إحضار الشيشـة؛ فيحضرها مترددًا. أمسـكها مسرعًا، وأسـحب نفسًـا طويلًا، أشعر معه بالطعم اللاذع الصـدئ، لأنفث بعدها دخانًا أحمر قانيًا. الرغبة في القيء والهروب من المكان؛ لكنِّي لا أجد قدمي. الدوار، والستار الداكن الذي يهبط ببطء من أعلى ليغمرني كلي. القهوة مُرة؛ ما أن تهبط جوفي حتى تبدأ في التحرك كمثقاب هائل. أشعر بمعدتي تتقلَّص، والعصارة تتصاعد لتغمر شفتيَّ؛ حمراء هي الأخرى. تمتزج بالدخان لتحيط بي كفقاعة هائلة. لا أرى ما وراءها، ولا أسمع أي شيء؛ فقط الوشيش المتصاعد كموج البحر.

اختفى المكان؛ لأجد نفسي أواصل هرولتي المتقطعة في شارع بأعمدة نور نصف مضاءة. السيارات تحوَّلتْ كلُّها للون الأسود. صوت موتورها مزعـج، وإطاراتُها تحفر خطًّا في الأسـفلت. أصعد فوق الرصيف محاولًا

الهرب. الأنوار العالية تحيطني، فأجد نفسي مكْبلًا فوق أرضيةٍ لزجةٍ تبتلعُني. أحـاول البحث من جديد عن هاتفي، ألمح المكان المغلق عبر بُعد. جنزير من الحديد يحيط ببابه الزجاجي، وواجهته متسخة دون لافتةٍ مُعلقة؛ ربَّما لو كان مفتوحًا لدخلته، لأنقذني من مطاردة السيارات السوداء القبيحة، ربما وجدتها هناك تنتظر بابتسامتها الوضَّاءة، وعينيها اللتين تشعان ضيًا لا مثيل له. تميل برأسها وهي تبتسم؛ لأمسك كفَّها بعدها وأهوي في سماوات من عطرها المتصاعد.

أنتفضُ على نفير السـيارات العالي. الـدوار لازال يتصاعد. لا أملك هاتفًا لأكلم أحدًا ليقلني من هنا. نقودي تحوَّلَتْ لأوراق ملوَّنة، وقطع من الـورق المتناثر. أفكُّ أزرار قميصي لأتنفس، يطبق على صدري، ويكبلني كدرع من حديد. أتحسـس رقبتي وأعلى صدري، أبحث عن هواء حولي. أنفاسي متقطعة لاهثة، والرؤية مُضببة أمام عيني.

يربتُ عليّ القهوجي من جديد، فأنتفض لأجد المكان حولي يسبح في سـحب من دخاني الأحمر. فمي يسـيل، والطعم اللزج يتناثر عبر شفتي. أرتعش، والعرق البارد ينبتُ ليغمرني. أفكُّ أزار القميص العلوية، وأعيد طيَّ الكمِّ المتهدل. يصطبغ هو الآخر باللون القاني، أشعر بثقله على كتفيَّ، وحرارته المتصاعدة. أتحسسـه بيد مهتزَّةٍ وأصابع مضطربة؛ كان شـائكًا كالإكليل الذي ألبسوه للمسيح قبل صلبه.

أواصل التحسـس ليتصاعد الألـمُ عبر كفي، أشـعر بالدُّخان يتجمَّعُ حولي سميكًا كالوسادة. يحيط بي، ويصنع حائلًا بين كفي، وبين القميص الشائك.

تبتلعني السحابة المحيطة لأهوى في دوَّامة تصيبني بغثيان ورغبة في القيء لا تتوقف. تميدُ الأرض، وتميل لأهوي منزلقًا عليها. يبدأ من حولي المطر في الهطول. جو بارد وهواء لاسع. يبتلُّ القميص؛ ليسيل لونه القاني فوق جسدي. يصبح أكثر ثقلًا، والتصاقًا بي. يحيطني ويجثمُ على صدري بثقل لا أتحمَّلُه. أحاول السير من جديد. المطرُ يصنع بركًا من الماء على الأرض. تمرُّ السيارات فتتناثر المياه عليّ. أحدهم يخرج طرف رأسه من الزجاج نصف المفتوح. يسبني لأبتعد عن الطريق. تمتلئ لحيتي بالماء، أتحسسها لأقوم بنزعها من على وجهي. أنظر لها قليلًا قبل أن أطوِّحَها بعيدًا لتدهسها نفسُ السيارة السوداء التي تطاردني منذ زمن. أحاول فكَّ باقي أزرار القميص، لكن المطر يزداد ضراوة، والبرق يلمع من بعيد ليدوي الرَّعدُ بعدها مفجِّرًا زجاج نوافذ الشارع كلِّه. يتناثر الزجاج مختلطًا بزخَّات المطر، يتساقط بدويٍّ محببٍ على الأرض. أخاف أن تأتي الآن. الزجاج يملأ المكان، وهي هشَّة؛ ربَّما تأتي وتسير فوقه دون أن تُجرح. طيف جميل نزل من السماء ليعيد إليّ إيماني. ألمحُها عبر المطر، فأبتسمُ غير مصدِّقٍ، ثمَّ أبدأ بالعدو نحوها. تنظر لي كأنَّها لا تعرفني. نظراتها مُشتتة حائرة. أقترب منها لأخلع قميصي وأضعه على رأسها المبتل. تنتفض وتتطلع إليّ عبر ماء وجهها الذي لا أعلم إن كان مطرًا أم دموعًا. أفرده فوق رأسها ليقيها المطر الجارف. كنتُ أرتجف وأنتفض وأنا أبحث عن فمي. الكلمات تتآكل قبل أن تخرج. انتفضتْ هي من جديد عندما أمسكتُ بكفِّها الصغير، تراجعتْ للوراء تاركةً القميص يغطِّي وجهها تمامًا. تتحسسه بكلتا يديها، تمسح به

وجههـا الجميل. كانتْ تنتحب؛ ربَّما بردًا، وربَّما بكاءًا. واصلَتْ تراجعها من جديد عبر الماء الذي يغمر الأسفلت، مدَّتْ يدها لتزيح طرف القميص عن عينيها، رموشـها المبتلة. عيناها اللتان تبرقان وتلمعان. تراجعتُ أنا أيضًا للوراء؛ لأتمكن من رؤية محيطها كلِّه. من أعلاها لأسفلها.

كان الطريق خاليًا. رحلَت المدينة، ولم تترك لنا سوى ذلك الشارع الذي يحتوينا. تحسست الأرض خلفها قبل أن تتوقف في منتصف الطريق، رفعتْ رأسها لأعلى وهي تواصل إزاحة القميص من على وجهها لتتركه يهوى على كتفيها. يُطَيّر الهواء طرفه خلفها فتبدو كبطل أسطوريٍّ من أبطال القصص. ترفع رأسها لأعلى وهي تحتضن صدرها بذراعيها؛ لتمسك ياقة القميص الذي يحتويها. ينتفخ فجأةً من دفقة هواء قويَّة، يسـيل شعرها على وجهها مبتلًا جميلًا؛ والقميص يواصل انتفاخه وارتفاعه خلفها ويسـحبها قليلًا للوراء قبل أن تبرق السماء فجأةً، وتبرق حبَّاتُ المطر المتناثرة؛ ليدوِّي انفجار الرعد مُخلِّفًا سُحبًا حمراء قانيةً حولنا. يشتعل القميص حولها بلهب متصاعد مُحيطًا بها هالة وضَّاءة ساحرة. يتراقصُ اللهب تحت المطر المتساقط دون أن ينطفئ، يتصاعد اللهـب ليُعمي عينيَّ؛ أجفل لثوانٍ مغمضًا قبل أنْ أعيد التطلُّع ثانية لأجد القميص يهوى وحده مكوَّمًا على الأرض دون أن تكون موجودة. يتآكل القميص مخلِّفًا خيوطًا متناثرة محترقة ورمادًا متطايرًا.

يربتُ عليّ الرجل من جديد. فأشـعر بأصابعه الباردة تلمس جلدي، أنتفض لأجد نفسي عاري الجزع. الدخان يسيل مني قانيًا، ورائحة حريق تزكم أنفي. أرى الرجل يسكبُ كوبًا من الماء على قميصي المشتعل أرضًا.

كان المقهى لازال يدور بي. الأرض تميدُ فلا أقدر على الوقوف. الرجل ينظر لي بتحسرٍ غير فاهم لما يحدث. سكتَ وشيشُ الراديو؛ ليحلَّ محلَّه ضجيجٌ مزعج مؤلم. أقف بصعوبةٍ مترنحًا، أتقدم من الباب المُضبب الذي لا أراه جيدًا. أسـمعهم ينادون. لا ألتفتُ وأخرج للشـارع الصغير الخالي. كان القمر بدرًا. يبدو عبر ثغرات البيوت فضيًّا كبيرًا. أتحسس صدري العاري ورقبتي، أبدأ في العدو قبل أن أقفز عاليًا لأعوي فوق المدينة الكابية التي تستعدُّ للنوم.